

محاضرات مقياس الأدب الشعبي الجزائري

السنة الثانية ماستر أدب جزائري

الأستاذ: رشيد جقريف

المحاضرة 02: شعر المقاومة والثورة

1/ توطئة:

اهتم الأدب الشعبي بمختلف أجناسه وأشكاله بموضوع المقاومة والثورة التحريرية بكل أحداثها وتفاعلاتها بوصفهما من أهم القضايا التي شغلت تفكير الفرد الجزائري، وقد كان الشعر الشعبي من أهم الأشكال تتابعا لموضوع المقاومة الشعبية والثورة وما صاحبهما من أحداث وبطولات وانكسارات فكانت عدسة الشاعر أو المداح الشعبي حاضرة دائما لتصوير ورصد كل كبيرة وصغيرة وكل شاردة وواردة اتصلت بهذا الحدث الهام من تاريخ الجزائر القديم والحديث، يرجع ويتبدى هذا الاهتمام من خلال كثرة ووفرة النصوص الشعرية من جهة، وكثرة الدراسات التي وضعت يدها على هذا الموضوع نخص بالذكر، ما جمعه الباحثان "جلول يلس والحفناوي أمقران" من نصوص شعرية في كتاب "المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون" وكذلك ما تركه "التلي بن الشيخ" من مؤلفات بالخصوص كتابه "دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة التحريرية 1830-1945" حيث قدّم دراسة وافية وقيّمة غطت هذه الفترة التاريخية وما دار فيها من أحداث سياسية هامة مهدت لاندلاع الثورة التحريرية مشفوعة بنصوص وقصائد تؤرخ وتوثق لهذه المرحلة، أما في مؤلفه الثاني "منطلقات التفكير في الأدب الشعبي الجزائري" فقد تناول فيه أهم الجوانب التي طرقها النص الشعبي أو بالأخص الشاعر الشعبي في الثورة من: دور الشعر الشعبي في الإعلام، دور الشعر الشعبي في الحركة الوطنية، دور الشعر الشعبي في الثورة، دور الشعر الشعبي في الوحدة الوطنية، هذا على أهمية ومدى حساسية هذه الموضوعات ومدى اتصالها بالثورة والشعب واهتمام الأديب الشعبي، إضافة إلى ما قدمه الأستاذ المجاهد الباحث "العربي دحو" من دراسات مسهبة وغزيرة حول الشعر الشعبي وعلاقته بالثورة، حيث قدم باكورة

أعماله وزبدة دراساته للمكتبة الجزائرية في شكل دراسات ودواوين للشعر الشعبي بالخصوص كتاب "الشعر الشعبي ودوره في الثورة التحريرية بمنطقة الأوراس" وديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية في الولاية التاريخية الأولى بالعربية والأمازيغية.

2/ الشعر الشعبي وموضوع المقاومة:

لقد ارتبط الشعر الشعبي الجزائري منذ بداياته الأولى باللحظات الحاسمة في تاريخ الجزائر لاسيما عند تعرضها لحمالات الغزو، وقف الشاعر يسجل حملات الصليب، ويدعو بقصائد حماسية إلى رد هذا العدوان وضرورة الانتصار للهلال في مواجهة الصليب، فالشعر بصورة من الصور هو فن الذبوع والانتشار لما يحتويه بناؤه الموسيقي في اختيار الكلمات وطريقة وضعها إلى جانب بعضها البعض...»¹ وفهم الشاعر الشعبي أن شعره وسيلة من وسائل الدعم والتجديد واستنهاض الهمم من أجل الحفاظ على الوطن والهوية.

«ولعل أقدم قصيدة سجلتها الذاكرة الشعبية ودواوين الشعر الشعبي قصيدة الولي المتصوف المجاهد الأخضر بن خلوف وهي قصيدة "قصة مزگران" بين الإسبان بقيادة شنظاطوش وبين الجيش الجزائري التركي بقيادة حسن باشا، نجل خير الدين وقد أبلى فيها الشاعر بلاء حسنا، كما سجلها في قصيدة كاملة هي قصة مزگران يقول في بعض أبياتها:

يا فارس من تم جيت اليوم غزوة مازگران معلومة

يا عجلانا ربيض الملجوم ريت أجناب الشلو موشومة

يا ساييليني عن طراد اليوم قصة مازگران معلومة

يا ساييليني كيف ذا القصة بين النصراني وخير الدين

اجتمعوا في برهم الأقصى بجيش قوي جاو متهدين

¹ أحمد قنشوبة: الشعر الغض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، دار الفارابي الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، ط1،

ترى سفن الروم محترسة صبحوا في المنا أعداء الدين²»

«وفي آخر القصيدة يسجل الشاعر انتصار الأمير حسن بن خير الدين في الواقعة، ويثني عليه، إذ أنه أرجع للبهجة (اسم العاصمة الجزائرية) بهجتها وفاز بغنائم الحرب، يقول الشاعر:

الأمير حسن يوم مازگران اخلف الثار من العدو تحقيق

رجع للبهجة عاصمة البلدان بغنايم شتى ونصر لبيب

ادعوا له يا ناس بالغفران يجعل له ربي مسلك وطريق³»

كما سجل شاعر آخر هو "ولد عمر" حدثا خطيرا عاشته الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، حين قصفت الدانمارك الجزائر بالقنابل سنة 1970، فقال الشاعر:

بسم الله نبدا على وفا ذا القصة تعيانا

قصة ذا البونبة المتلفة كيف جابوها أعدانا

واضحة وعلى البعد واقفة ما قرب لحذانا

يا ربي يا عالم بالخفا اهزم جيش اعدانا⁴

وكذا حين احتلت مدينة الجزائر، كان الشعر الشعبي حاضرا يدون للتاريخ الكارثة التي حلت بالأمة بحزن وأسف، فهذا الشاعر عبد القادر الوهراني أحد شعراء العاصمة وأعيانها يقول في ذلك شعرا، يذكرنا برثاء المدن والممالك الأندلسية، ويقول الشاعر:

الأيام يا أخواني تبدل ساعتها والدهر ينقلب ويولي في الحين

بعد أن كان سنجاق البهجة ووجاقها الأجناس تخافها في البر وبحرين

² أحمد قنشوبة: الشعر الغض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري ص 70، 71.

³ مرجع نفسه، ص 71.

⁴ جلول يلس وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1975، ص 29.

منين راد ربي ووفى ميجالها واعطاوها أهل الله الصالحين

الفرنسيس حرك لها وخذاها لا هي ميات مركب لا هي ميتين

بسفاينه يفرص الحرب قبالها كي جاوا في البحر بجنود قوين

غاب الحساب وادرك وتلف حسابها الروم جاو للبهجة مشتدين

راني على الجزائر يا ناس حزين⁵

«وقد تلقف الرواة الشعبيون هذه القصيدة وأنشدها المداحون في الأسواق والمناسبات الأخرى، وأخذوا يحركون نفوس المستعمرين من خلالها، لاسيما بالتركيز على مقاطعها، مثل قول الشاعر:

موت الجهاد خير من حيين

بل اعترف الأوروبيون أن القصيدة ساهمت في إضرام نار الثورات كثرة ابن زعمون سنة 1830، وثورة مليانة سنة 1851»⁶

كان لسقوط مدينة الجزائر الأثر المدوي في نفسية كل فرد جزائري، وما إن بدأت شرارة الصدام مع المستعمر في مواقع عدة، خاصة أثناء المقاومات الشعبية كمقاومة الأمير عبد القادر والشيخ بوعمامة، فقد كان الشاعر الشعبي حاضرا يلهب حماس المجاهدين ويسجل ما يجري من أحداث.

فهذا أحد شعراء الصحراء يسجل عواطف الوفاء والإعجاب بثورة الأمير عبد القادر وتأثيرها في وجدان الطبقات الشعبية ويبدو أن الشاعر كان بعيدا عن معقل الثورة عندما نظم أرجوزة شيقة يصف فيها انتصاراتها، فقد أثارت بطولات أهالي غريس في نفس الشاعر شعورا وطنيا فياضاً،

⁵ جلول يلس وأمقران الحفناوي، المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون، ص 36.

⁶ أحمد قنشوبة: الشعر الغرض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، ص 73.

وبعثت في وجدانه كوامن الفخر، فأراد أن يعوض ما فاتته في ساحة النزال من شرف الإسهام
في الجهاد، بقصيدة رائقة، ضمنها مشاعر الحب، ولواعج الشوق نحو إخوانه المجاهدين

وقد بدأ ابن الصحراء الأرجوزة بما يلي:

أوطان غريس يا خي هَدْفُوا لِيَا

والقلب خميس ما يهنأش قَطْعِيَا

لو صَبَّتْ أَجْمُوح مَنْ جَنَبُهُ ماشي مجروح

عليه أنوح عند موالي عِينِيَا

شاتي أنشوف طراشين غريس صُفُوف

مكاحل وسيوف كاسين خيول المِيَا⁷

وقد طارت انتصارات أهالي غريس على قوات العدو من معسكر ومليانة إلى فاس في المغرب
الأقصى، وغيرها وقد جاءت الوفود من كل الأجناس حاملة الهدايا، ومهنتة الأمير عبد القادر
بهذا الانتصار الكبير:

ابن محي الدين رَيس ذاك الجيش الزين

زَهو الدارين وعطاهم ربي العُليا

فارس الأعراب بالسيف يَقلَبُ تقلاب

قاطع الأرقاب القوم النصرانية

عبد القادر جاب معاه أعلام الخير

⁷ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945، سحب الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر، د ط،
2007م، ص 133.

طَوَّعَ رِيَّاسَ مَنْ مَعَسَكَرَ لِمَدِينَةِ فَاسَ

أَشْبَائِلَ الْأَجْناسِ كُلَّ يَوْمٍ تُجِيءُ هُدَايَا

فِي بُوقَرُوزٍ مَعَ الْكَافِرِ رَأْسَ الْغُولِ

تَرْكُوزُ مَذْلُولٍ مَعْظَمُ هَذَا الْقَصِيدَا⁸

3/ الشعر الشعبي والثورة التحريرية:

«فحين اندلعت ثورة التحرير المباركة كان الشاعر الشعبي الجزائري جنديا من جنودها، يسجل مآثرها ويدعو إلى مؤازرتها، وينقل أحداثها من منطقة إلى أخرى، راويا شعره في الأسواق والأفراح والمقاهي والبيوت والتجمعات، متخيرا الصور الجميلة والرموز المعبرة لمجاهدي الثورة، ناعتا الذين خانوها بأبشع الصفات، مؤديا بذلك أدوارا كثيرة مثل: الإعلام والدعاية، وحشد الهمم وشحذها للانضمام للثورة»⁹

فهذه الشاعرة المجاهدة فاطمة منصوري من مدينة الوادي تبذل في قصيدة في بداية سنة 1956 حين أرسل لها مجاهد يسمى مبروك رسالة يخبرها فيها بأنه مازال على قيد الحياة، بعدما ظن الناس أن فرنسا قتلته، فأذاعت هذا الخبر بشعرها قائلة:

جواب البعايد من "مبروك" وصلنا

وأطلق سراحه يا إلهي لنا

عليك السلام وإن شاء الله تجملنا

⁸ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945، ص 135.

⁹ أحمد قنشوبة: الشعر الغض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، ص 75.

حتى إن هذه الشاعرة قد ألقى القبض عليها، حينما مثل شعرها خطراً على المستعمر، وطلب منها القائد أن تكف عن قول الشعر ليطلق سراحها، لكنها أبت وردت عليه بالقول:¹⁰

حالف ما نبطل الافتان كانش لربحنا الحرية

عنها نسكن في الجبال ندّوها بالفنطازيّة

عنها طلّعنا لجبل الأوراس وتوطّنا في الأرياس

عينها لا تعرف الانعاس وطعم الرقدة لا يليق بيه¹¹

فالشاعرة هنا تخاطب فرنسا بأنها لن تتوقف عن قول الشعر وإثارة المشاكل والفتن (الافتان) بعدما أدركت خطورة شعرها ومدى تأثيره على الجماهير، وقد زاد من إصرارها على هذا منع المستعمرين لها ومحاولة ردعها وإخراسها عن قول الشعر وإثارة الناس.

«وقد لعب الشاعر الشعبي دوراً هاماً في الثورات الجزائرية على اختلاف مراحلها، فكان شاعر نضال ورفيق سلاح، وحامل رسالة، يستمد شعره من عاطفة دينية قوية ويحمل بين جوانبه ضميراً قومياً شفافاً، رأى في أهداف الغزو الاستعماري، غزواً للدين، وهدماً للكيان المسلم، في هذا الوطن الذي يرفض أن يكون غير عربي مسلم»¹²

حيث عمد الشعراء إلى استلهاهم الموروث الديني والإسلامي في نصوصهم، بما يعرف حديثاً بالتناسل لتأكيد وترسيخ البعد الإسلامي وتعميق الخلفية الدينية والتاريخية والثقافية للشعب الجزائري، وهذا الشاعر "دريسي البشير" من سيدي خالد (بسكرة) حين يطلب النصر من الله والتأييد ولم الشمل

يا ربّ العباد وحدّ هذا الصف تتحد رجالنا قبل الآجال

¹⁰ ينظر، أحمد قنشوبة: الشعر الغض، ص 76.

¹¹ أحمد قنشوبة: الشعر الغض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، ص 77.

¹² التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945، ص 98.

يصبح الاستعمار مهزوم مكثف ويولي محقور وادنابو الارذال

وسلكنا كما سلك منها يوسف وسط الجب ومعاه خوتو والأطفال

في مصر باعوه مملوك منصف واشتراهم أميرهم برخيص المال

يا ربي بجاه صاحب الكهف زول عنا يا الخالق كل اخبال

يصبح لعلام مبسوط يرفرف أخضر وبيض وسطو نجمة وهلال¹³

والشاعر الشعبي لم يكن أديبا (صناعيا) يتفنن في اختيار القوالب الجميلة لكي يؤثر في عواطف الناس وإنما كان يقول الشعر بطريقة تلقائية وعفوية، ويعيش محنة الاحتلال بكل آلامها، وجراحها، ويصور إحساس مواطنيه، فيذكرهم بأحداث الماضي ليدفعهم إلى الجهاد والتضحية من أجل تحقيق الحياة الكريمة، والشاعر الشعبي لا يهدف من وراء نظم الشعر إلى كسب الشهرة أو الجاه وإنما يهدف من وراء شعره إلى تصوير مأساة غزو استعماري استهدف دينه وثقافته، وعرض حياة مواطنيه إلى البؤس والفقر، وحول أمنهم إلى خوف ورعب وشقاء. وهذا ما يشير إليه «التلي بن الشيخ» تحديدا بقوله: «والشاعر الشعبي ينطلق من قناعة ذاتية وإيمان بحب الوطن يمليه عليه واجبه الوطني، ولولا لشعبه، ولولا القناعة الذاتية لكان في إمكان الشاعر الشعبي أن يقتفي أثر القصاص الشعبي فيتخذ من الأساطير والخرافات موضوعا لشعره، ويتحاشى التعبير عن القضايا الوطنية التي ستعرضه للمتابعة وقد تؤدي به إلى السجن والنفي، ولكنه أثر المواقف الوطنية الصريحة ضد قوات الاحتلال»¹⁴

كما عبّر وسجل الشاعر الشعبي أبرز الأحداث السياسية في تاريخ كفاح الشعب الجزائري الطويل والمرهق، فها هو أحد الشعراء يصور مأساة الثامن ماي بسطيف ويصفها بأنها قصة تحكى وتروى على مر الأجيال، للشاعر بلخير بن فرحات:

¹³ ينظر: أحمد قنشوبة الشعر الغض قراءات في الشعر الشعبي الجزائري، ص 77-78.

¹⁴ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945، ص 47-48.

قصة يوم سطيف معتاها مازالت في القلوب مكمية

محاين قاويين شفناها كتيتهم في الدليل مقدية

قصة يوم سطيف مروية¹⁵

كما صور الكثير من المعارك الضارية وخلدها في نصوص بديعة مازال يتغنى بها الكثير من ممن مازالوا يحفظونها وبعضها مبنوثة في الدواوين التي جمعت بعد الاستقلال خاصة التي جمعها الأستاذ العربي دحو، وهي نصوص غنية وثرية نأخذ منها هذه الأبيات من قصيدة «معركة الجرف» التي جرت أحداثها بمنطقة تبسة

فرانسا حكّت الدّبرة وعرفت كي من أكواها

بهذاك شهدوا الكفرة بيجار سنيا أخداها

تبسة حاسة بحفرة وأتلوم على اللي أجفاها

ماهيش يا ناس بقرة من القرط طالبة أعشاها

والجرف ما هوش حفرة أزراذيب ومديه أقداها

الأيام تمرض وتبرا والصبر هو ادواها

أبطال الشعب غوار شنو على الروم غاره

شجعان من نسل لحرار أهل لحجا والدباره

أصناديد من كل دوار أتنصبو على كل قاره¹⁶

¹⁵ التلي بن الشيخ، دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830-1945، ص 71.

¹⁶ العربي دحو: نصوص شعرية شعبية عن الثورة التحريرية لمجاهدين ومجاهدات، منشورات الرابطة الوطنية للأدب الشعبي، د ط، د ت، ص 42.

كما تطرق الشاعر الشعبي إلى وصف أنواع الأسلحة والآلات الحربية للعدو المستعمر في مقابل ما كان يستعمله المجاهدون من أسلحة بسيطة وخفيفة يغذيها الحماس والشجاعة والصبر والثبات، كما اجتهد في تحقير الآخر الغازي ونعته بأبشع الأوصاف والنعوت للحط من قيمته كما في نص «المعركة الكبرى» المستل من ديوان الشعر الشعبي عن الثورة التحريرية "العربي دحو" يصور أحد الشعراء المجاهدين حادثة اختطاف الطائرة من قبل القادة الجزائريين، ويستطرد في سرد بعض الأحداث الأخرى وكشف مخططات المستعمر الخبيثة للقضاء على الثورة مثل خطي شال وموريس على الحدود الشرقية والغربية للوطن لغلق الإمداد عن الثورة والتضييق عن الثوار، وفي هذا النص، نرى الشاعر وهو يتفنن في شتم القادة الفرنسيين ونعتهم بأبشع النعوت.

نحكيلكم على ما فات قبل اليوم بسنوات

كانوا خمسة من السادات أحكمهم غيمولي القواد

هم راحو للملك قالولو واش اللي بيك

لازم نوحد لفريك ونعملوها كل اتحاد

قالهم سيرو فالطيارة في تونس نعملوا ادبارة

إلى أن يقول

قالهم هاتو موريس للحدود وقويولو الجنود

لمان في تونس مفقود ومعاها المغرب يا عباد

جانا موريس بالرصاص وزرّب الحدود خلاص

من القالة لسوق أهراس ما يفوت حد يا لولاد¹⁷

¹⁷ العربي دحو: نصوص شعرية شعبية عن الثورة التحريرية لمجاهدين ومجاهدات، ص 26-28.

خصائص ومميزات النص الشعبي الثوري والمقاوم:

- تميز النص الشعبي الثوري والمقاوم بغلبة الحماسة والطابع الديني وذلك تبعا للتكوين الديني لأغلب الشعراء الذين تكونوا في الكتاتيب والزوايا أضف إلى ذلك طبيعة الصراع بين الأنا والآخر والتي تفرض محاولة إبراز الذات بكل مقوماتها أي الإسلام والمسيحية.

- ارتبط الشعر الشعبي الجزائري بقضايا الجماعة دون الفرد (انصهار أنا الفرد داخل الجماعة) فتطرق لأهم الأحداث التاريخية والسياسية التي شهدتها الجزائر منذ قرون (حملات الغزو على سواحل الجزائر، معارك الجزائر في البحر مع الأعداء، تحرير الموانئ، الاحتلال الفرنسي والثورات الشعبية...).

- القيمة التوثيقية لنصوص القصائد الشعبية التي أرخت ووثقت لكثير من الأحداث والوقائع والأمكنة والشخوص التي أغفلها التاريخ أو ضاعت أخبارها (فهو بذلك مرجع مهم لا يستهان به في معرفة كثير من قضايا تاريخنا بالخصوص ما جمعه بعض المستشرقين من نصوص أمثال (المجلة الإفريقية) التي تحفل بالكثير من النصوص التي تؤرخ لشمال إفريقيا، وكذلك ما جمعه محمد قاضي في كتابه الكنز المكنون في الشعر الملحون، وغيرهم.

- تظهر دلالات الصراع والصدام بين الأنا والآخر في الأشعار الشعبية، والمغالاة في تحقير الآخر ووصفه بأبشع النعوت (الكافر، النصراني، أعداء الدين، الخنازير...) مقابل الإشادة ببطولة وإنجازات الأنا الماثلة في شخص الأبطال والقادة والجنود المجاهدين.

- الدور الإعلامي والتوعوي الذي اضطلع به النص الشعبي في توعية الجماهير بما يحاك ضدهم من دسائس ومؤامرات وكشفها للعلن، وكذا توصيل صوت الثورة لكل ربوع الوطن وتدويل القضية الوطنية من خلال النص الشعري في وقت انعدمت فيه الوسائل والإمكانات مع تضيق السلطات الاستعمارية (غلقها للمدارس وتعطيل الصحف والمجلات مثل الشهاب، البصائر لجمعية العلماء المسلمين...).

- الحث على الجهاد وترغيب الناس فيه من خلال شحذ الهمم وتحفيز المواطنين وتذكيرهم بواجب الوطن والدين وموعود الله للصابرين والمجاهدين.

- انطلق الأديب الشعبي في معالجة موضوع الثورة من بيئته وظروفه الاجتماعية وأحواله النفسية الصعبة ووفق وسائله وآلياته البسيطة وثقافته المحدودة، لذلك نلمس بساطة التعبير والمباشرة في الطرح وغلبة الحماسة والعاطفة في أشعارهم.